



المتهم الكلاسيكي

رواية

تأليف

أحمد المصري

عنوان الكتاب: المتنرد الكلاسيكي

الموضوع: رواية

تأليف: أحمد المصري

تصميم غلاف: عائشة عمارة

رقم الإيداع بالدار : 2026/0549

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-55-1-260531

الناشر:

أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

alkatebacademyforpublishing@gmail.com

01112357473

مصر



المتنرد الكلاسيكي

رواية

تأليف

أحمد المصري

٢٠٢٦



مقدمة

هذه ليست رواية عن الحب ،ولا عن الثورة ،
بل عن إنسان...
أحرقه كل شيء ، فأشعل سيجارة ،
وسار في الظلام وحده .
قد تظن أن المتنرد بطل خيالي ،
لكنك ستراه في انعكاس مرآتك...
حين تتألم بصمت ،
وتبتسم رغم الخسارة .
لا أعدك بنهاية سعيدة ،
لكنني أعدك بأن تشعر .
مرحبًا بك في عالم المتنرد الكلاسيكي .

الفصل الاول :

عالم غير العالم

عشرون عامًا... أشعر وكأن العالم لا يتسع لي.
عشرون عامًا من التمرّد والنضال من أجل حالة قديمة فقدتها، حتى
انتهى بي الأمر إلى فقدان نفسي القديمة؛ نصف القلب، ونصف
صلب كالجر.

حالة انفصام حادة تمرّق بين الأزمنة، تؤب قلبًا لا ينتمي إلى هذا
الجيل؛ قلبًا قديمًا بعقلٍ وُلد في زمنٍ لم يعرفني، وُلدتُ، ولكنني لم
أولد.

وُلدت وحيدًا، لا أحد يفهمني.

كنت في الثامنة حين طلب مني أبي أن أقول "شكرًا" لعجوزٍ
أعطتني قطعة حلوى.

نظرت إليه ثم إليها، ولم أقل شيئًا.

لم أكن أكره الشكر، بل أكره أن يُطلب مني أن أكون لطيفًا فقط لأن
العالم يريد ذلك.

صفعتني نظراته، ثم صفعتني يده...

وبكيت، لا لأنني تألمت، بل لأنني شعرت أنني وحدي حتى في المعنى.

وجدت دفترتي الأول في سن العاشرة.

لم أكتب فيه واجباتي، بل كتبت صراخي.

كنت أخطّ كلماتي كأنني أتنفّس للمرة الأولى،

كأنني أقول "أنا هنا" في عالم أصمّ.

ومنذها، لم أعد أكتب لأعجب أحدًا، بل لأبقى حيًا.

أشعر أنني أنتمي إلى الكلاسيكيات، إلى عصر سادت فيه قِلّة تحيا

بكرامة، عصرٍ لم يكن فيه القديم يُحتقر، بل يُوقّر.

أما هذا العالم... هذا الكوكب، فلم يعد يحتضن البشرية، بل يحتضن الذئاب البشرية.

نفاق، وغدر، وخيانة... أسقطت العظماء ورفعت السفلة.

أنا لست عظيمًا... لكنني أيضًا لست من السفلة.

أنا شاب في العشرين من عمره، كُتب له أن يولد بعقل في جسد كلاسيكي.

أنا ذلك الشاب الذي عشق البنطال القماشي، والقميص، والمعطف، والقبعة.

لم أحبّ السروال الممزق، ولا القمصان الفضفاضة.

عشت في يوتوبيا داخل رأسي.

درست وتعلمت، وبلغت السابعة عشرة من عمري، ولكنني أستحي أن أقول إن ما درست كان مدرسة.

تعلمت فيها أن الحياة تبدأ بأن تتحني لمدير يُدعى "م"، حتى تصبح عبدًا له، وعندما خرجت إلى العالم... انحنيت كما قالوا لي، لكنهم سحقوني.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا...

حين رُفضت ورقتي في حصة التعبير لأنها "كنيية"،

حين قال المدرس بصوت جامد:

"هذا الأسلوب لا يصلح، تفكر كأنك شيخ عجوز، عليك أن تكون كأقرانك".

ضحك الجميع، ولم أضحك. كنت الوحيد الذي لم يضحك.

شعرت أنني أنتمي إلى شيء لا يعرفونه، إلى جرح لا يملكونه.

ومنذ ذلك اليوم... لم أعد أكتب للمدرسة، بل بدأت أكتب ضدها وضدهم.

ما كنت لأتمرد لولاكم... فأنتم شرارة الحريق، أيها الملعونون.

جلست في المقهى المفضل لديّ، لا لشيء، سوى لأراقب.
جلس رجل أربعيني يضحك بصوت عالٍ، يتحدث عن أسعار العملات
وكان الحياة كلها في جيبه.
وبجانبه فتى مراهق يتحدث عن فتاة أحبها لأن مظهرها يشبه
عارضة أزياء إلكترونية.
كل شيء حولي يدور في دوائر لا تشبهني.
كانوا هناك، أحياء... وأنا؟ كنت ميتاً يتنصع التنفس.
طلبت قهوتي وأشعلت سيجارتي في صمت كثيف، كمن يُسكت شيئاً
في داخله.

في المقهى، ضحك رجل بصوت عالٍ لأنه كسب في لعبة ورق.
سقط فنجان، فصرخ في النادل كأنه عبد.
شعرت برأسي يغلي، أردت أن أصفعه، أن أصرخ:
"اخسأ أيها التافه!"
لكنني ابتلعت لساني... وأشعلت سيجارة أخرى.
القهر يعلمك الصمت... ثم يقتلك به.
وفي لحظة من الذهول، مرّت في ذهني ملامح وجه... وجه أحببته
يوماً.
ربما لم تكن جميلة، لكنها كانت أول من جعلني أكتب:
"أحببتك لأنك لم تكوني لي."
اختفت كما تختفي الأشياء التي لا تكتمل، وتركت أثراً لا يمحوه
دخان التبغ.

ذات ليلة، حلمت أنني في حفلة تنكرية.
الناس يرتدون أقنعة مبتسمة،
وأنا الوحيد بوجه مكشوف.
كلما حاولت التحدث، أداروا وجوههم وضحكوا،
ثم رقصوا عليّ كما لو كنت المهرج الحقيقي.
استيقظت وأنا أرتجف...
وأدركت أن الواقع ليس أقل تنكرًا من الحلم.
ذهبت بمخيلة روعي إلى أقاصي الغرب... إلى أمريكا.
رأيت نفسي خارج القانون، مرتديًا سترة جلدية، وسروالًا داكنًا،
أمتطي دراجة نارية.
ألعب، وأشرب، وأدخن، وأنام على الأرض، وأشعر أنني أطيّر.
ثم أعود إلى بيتي... لا بقوة، بل بأفيون.

ذهبت روعي إلى عالم رعاة البقر.
امتطيتُ حصاناً، ودخنتُ تبغاً مريراً، وكان مسدسي رفيقي الوحيد
في عتمة الليل تحت ضوء القمر.
كنت أسير على الرمال الباردة، لكن أصابعي تكاد تتجمّد، لا من
البرد، بل من الطمأنينة، وكان المسدس في يدي اليمنى.
اقتربت من الحانة الخشبية التي تنبعث منها أصوات الضحك،
وصفحات الكؤوس، وصرير البيانو المهتز.
دفعت الباب فصمت كل شيء فجأة، كأني قاطعت حفلة لم أدع إليها.
نظرت حولي فرأيت رجلاً يجلس وحده في الزاوية، يرتدي ملابس
نفسها، ويدخن سيجارتي نفسها.
حدّق في بابتسامة ساخرة، وقال:
"تأخرت، نحن انتهينا من جنونك".
شعرت أنني أنظر إلى نفسي حين استسلمت، حين سكّت بدل أن
أصرخ.
اقتربت منه، لم أتكلّم. فقط وضعت الزجاجاة الحارقة على طاولته.
سألني: "ما اسمك؟"
قلت له: "اسمي الذي لم تعرفوه أبداً".
أشعلت الزجاجاة وألقيتها على الحانة التي كانت تمثل أعدائي.
كانت تلك الحانة تحيي كثيراً مما مات داخلي.
اندلع اللهب في لحظة انفجار، وتناثر الخشب والزجاج والدخان إلى
السماء كأنها قيامة صغيرة.
ارتفعت الصرخات، وهرب الجميع، إلا ذلك الرجل الذي ظل جالساً

يحترق ويضحك، كما لو كان يختفي بي.
وقفت في المنتصف، لا أهرب، لا أراجع، أنظر إلى النيران وكأني
أراقب موتي بعينين ثابتتين.
لحظة صمتٍ سبقت الانفجار، ثم اندلعت النيران، ولم أتحرك، فقط
نظرت ببساطة، كأني أراقب الجحيم من بعيد.
ثم سمعت حركة خافتة خلفي، استدرت، فرأيت الذئب تقترب.
لم تعد تراقبني من بعيد، بل وقفت حولي في دائرة، صامتة، لا
تعوي، لا تنهش.
نظرت في عيونها... ولم أخف.
لأول مرة، شعرت أنني منها.
كانت الذئب تراقبني من بعيد، ولم تكن تحميني من شيء، بل ربما
أيقظت ما يشبهها داخلي.
آمنتُ أن الحب ضعف... ولم أكن ضعيفاً.
بل ربما... لم أهرب من الموت، بل سقطتُ على وطنٍ رفض
الحياة... فأعادني.
لا بقوة... بل بأفيون.
أفيون، أيها القارئ... أفيون.

الفصل الثاني:

أفيون الحب

الحب... هذا الشيء المبارك واللعين معًا،
الذي مهما تحدّثت عنه الكتب، فلن يكفيه كتاب أو اثنان، ولا مئة،
ولا ألف.

منهم من وصفه بالجمال والتفاؤل، ومنهم من رآه نذير شؤم وكآبة.
أما أنا، فأراه الاثنين معًا، لعنة مباركة، تخدّر القلب ببطء... ثم تقتله
بلدّة.

تم تخديري بلعنة الحب يوم رأيته...
رأيت أجمل فتاة في حياتي، كأن روعي كانت غائبة ثم عادت حين
وقعت عيناى عليها.

بعد رحلة روعي إلى أمريكا،
ذهبت بخيالي إلى إيطاليا... وهناك رأيت نفسي في جسد زعيم مافيا.
رأيت المال، القوة، احترام الناس...
خيال عنيف، نعم، لكنه كان انعكاسًا لرغبتى في السيطرة، لا الحب.
طبعًا، أول ما قلت "مافيا"، قد يظن القارئ أنني أتحدث عن السلاح
والمخدرات والدم.

لا، لم أكن تاجر مخدرات.
نعم، تاجرت في السلاح، لكنني بعته للحكومة.
نعم، اغتلت بعضهم، لكنهم كانوا مجرمين.
فعلت ما لم تجرؤ عليه الشرطة، وكان كل شيء لوجه الخير...
ورغم ذلك، كان الظلام يلاحقني، وكان الموت يحيطني من كل
جانب...

ثم عاد بي الزمن فجأة، وكأن ذاكرتي صفعتني دون إذن،
فوجدتني مجددًا هناك... في الجنوب، في ظلال صقلية، حيث بدأت

قصتي مع ماركو.
كنت شاباً حينها، غريباً وسط عالم لا يرحم.
دخلت عالم ماركو لأنني كنت أبحث عن مكان، عن سلطة، عن وجود.
ماركو كان أشبه بالأخ الكبير، قدّم لي العمل، والمال، والمكانة.
كنا معاً دائماً، كتفاً بكتف، حتى جاءت أول عملية اغتيال.
كنت أنا المنفّذ، وكان هو الأمر.
نفّذت المهمة بدقة، وعدنا نضحك على فوضى العالم.
لكن الضحك لا يدوم في عالم تسوده الخيانة.
مرت سنوات، وازدادت قوتي.
صرْتُ أملك معلومات لا ينبغي لأحد امتلاكها.
ثم جاءت الصفقة الكبرى،
التي غيّرت كل شيء.
ليلة الصفقة، كنا في مصنع مهجور،
ماركو بجانبني، والمال بيننا،
وحين فتحت الحقيبة... لم أجد مالاً.
وجدت رصاصة.
ثم سقطت الرصاصة.
واشتعلت الرصاصات الحقيقية.
ماركو أطلق النار عليّ.
أصابني في كتفي، وهرب.

هربت من المكان، مصابًا، واختبأت أيامًا.
لكن الحمى لم تكن من الرصاصة وحدها... بل من الغدر.
أقسمت أن أراه مجددًا... لا لأفهم، بل لأجعله يشعر بما شعرت.
مرت أسابيع، بحثت عنه كما يبحث العطشان عن قطرة ماء.
ثم جاءني الخبر: حفلة مغلقة في فينيسيا، أحد الحاضرين يدعى "م.
روسي".
ذهبت، ببذلة رسمية، ومسدس صغير.
دخلت، فوجدته.
تجمّد الزمن.
اقتربت، وسحبته إلى الشرفة.
أخرجت المسدس، ووجهته ل صدره.
قال: "افعلها... أو سامحني، كما تشاء".
قلت: "أنا لا أسامح، لكنني أيضًا لا أقتل دون لذة".
ثم أطلقت النار... في قدمه.

صرخ؁ سقط؁ رميت أمامه صورة لنا قديمة.
وقلت: "الآن أنت وحدك؁ كما تركتني وحدي".
ورحلت.

منذ تلك الليلة... لم أعد أومن بالحب؁ بل بالحرب.
طوال خمسة عشر عامًا؁ كنت أومن أن الحب للضعفاء...
أما المتنرد الثائر مثلي؁ فلا قلب له.
ثم سقطت من السماء... الملاك.
ولأول مرة؁ رقّ قلبي.

آه؁ كم شعرت بعدها بمشاعر لم أعدها من قبل...
حنين؁ خفة؁ ارتباك...
أفيون الحب قد نشط في دمي؁
والمفعول؟ أقوى من الكوكايين؁
بل أشدّ؁ وألذّ؁ وأبقى.

إنها ميليسا.
الإيطالية ذات الجمال الساحر؁ العيون السوداء؁ والبشرة التي لا
تشبه بشرًا.
كانت ملاكًا؁ لا شك في ذلك.
ملاكًا هبط من سماء إيطاليا ليُعرفني؁ أخيرًا؁ بطعم الحب.

وصلت إلى إيطاليا؁ تحديدًا إلى صقلية؁
ودخلت الفندق.
في الطريق؁ رأيت معالم تُبهر القلب؁

لكنني كنت مرهقاً، نعساناً ككل من وصل من سفرٍ طويل.
خلدتُ إلى قيلولة قصيرة، حتى حلّ الغروب.
استيقظت جائعاً.
نزلت من غرفتي، ووجدت محل بيتزا قريباً يقولون إنها رائعة
هناك.
طلبْتُ واحدة، وكانت فعلاً كما قيل: لذيذة.
ثم ذهبت إلى مقهى بجوار الفندق.
جلست هناك، أحتسي الشاي بدلاً من الخمر.
من وجهة نظري المتواضعة: العقل إذا ذهب، لا يعود.
والفرق الوحيد بين الخمر والحب... أن الخمر سُكّرَ اختياري،
والحب سُكّرَ قدري.

جلست في المقهى، أحتسي الشاي وأدخن سيجارتي.
لم يكن الحب في قاموسي...
حتى ظهرت هي، الملاك ميليسا.
كانت تحتسي القهوة وهي تقلب في حقيبتها بتوترٍ واضح.
كان وجهها مشدودًا، وعيناها في حركةٍ لا تهدأ.
فهمتُ حينها أن المال قد سقط منها... أو سُرق.
اقترب النادل منها يطلب الحساب،
فقالَتْ له بصوتها القَلِق إن المال لم يعد معها.
بدأ الجدل، وبدأ الموقف يحرّجها.
ناديتُ النادل، دفعت حسابي، ثم قلت له بهدوء:
"حساب الآنسة... عليّ".
قمت من مكاني، وأطفأت سيجارتي ببطء،
ثم استدّرت لأرحل... لكن سمعتها خلفي تناديني بصوتٍ عذب:
"سيدي... سيدي"...
نظرتُ خلفي.
وفي اللحظة التي تلاقت فيها عيناها بعينيها السوداوين،
خُذرت.
قلبي، ذلك الذي لم ينبض إلا للحرب،
نبض للمرة الأولى...
وكأن روحي وجدت وطنًا بعد سنوات من التيه.
قالت وهي تبسّم بخجل:
"أشكرك سيدي... شكرًا جزيلاً. ماذا كن"...
قاطعتها بهدوء وقلت:

"لا تقولي شيئاً... أيتها الجميلة".
لمعت عيناها، واحمرّ وجهها الشديد البياض.
عرضتُ عليها أن نتمشّي قليلاً.
لم تقل "نعم"، لكن عينيها سبقتها.
ومضينا معاً، نتحدّث طوال الطريق،
وكان الانبهار لا يفارق ملامحها.
عدنا إلى نفس المقهى.
طلبتُ لها قهوة إسبريسو، وطلبت لنفسني كابوتشينو.
كنّا، أنا وهي، في لحظة من لحظات السعادة النادرة...
تلك اللحظات التي لا تتكرّر،
ولا تحتاج إلى موسيقى...
لأنها، بذاتها، كانت نعمة.

أنهينا الجلسة، وعدتُ إلى الفندق.
تركتني عند الباب، وسلّمت عليّ.
وقبل أن تخطو خطوة الرحيل، قلت:
"مهلاً... لم أعرف اسمك بعد. ما اسمك؟"
التفتت إليّ، وقالت بصوتٍ عذبٍ لحن قلبي:
"ميليسا... اسمي ميليسا. تصبح على خير".
صعدتُ إلى غرفتي، لكن النوم لم يأتِ.
كلما أغمضتُ عيني، سمعت صوتها،

ورأيت وجهها يتسلّل إلى قلبي كضوءٍ دافئٍ في آخر الليل.
أفيون الحب كان قد بدأ يسري في دمي.

وسبحان الله...

سكرتُ ولم أذق الخمر قط.

فالخمر يصحو شاربه،

أما الحب... فلا يُفقق منه أحد.

وقفتُ في الشرفة، أعددت لنفسي كوب شاي،

شغلت السيمفونية الأربعين لموزارت،

ودخنت سيجارتي، بينما السماء من فوقني ساكنة.

فجأة، ظهر طيفها بين الغيوم،

كانت تبسم لي، كأنها تطمئن على قلبي من فوق.

عيناها تعلقتا بالفراغ،

لكن قلبي... كان ممتلئاً.

رفعت الكوب، وقلت بصوتٍ خافت:

"في صحتك، أيتها الإيطالية... وفي صحة الأيام القادمة، سواء

كانت لي أو ضدي".

رقّ قلبي لها وأصبح ليّناً.

كانت أول الحنان في حياتي،

بعد أن كانت حياتي عنيفة إلى أقصى حد.

جذبتني ببراءتها...

وأخرجتني من الظلمات إلى النور.

شعرت بالنعاس،
لكن أفيون الحب كان قد نقش صورة ميليسا في قلبي.
تمددت على السرير، وأغمضت عيني...
فجاءتني في الحلم.

ميليسا...

ظهرت في روما، تحديدًا في الكولوسيوم،
ترقص أمامي، وأنا أدخن سيجارتي.
تارةً تقفز،
وتارةً تدور كأنها تتمايل مع الموسيقى،
ثم تطير كأنها لا تنتمي إلى الأرض،
ثم تتلوّى، كما لو أن الجسد تحوّل إلى لحن.
تابعتها بعيني حتى انطفأت السيجارة.
وفي اللحظة التي أمسكتُ فيها بيدها، همستُ:
"ميليسا... ميليسا... أنا... أنا أحبك".
نظرت إليّ، وقالت وهي تبتسم بدهشة:
"ماذا؟"

قلت مجددًا، دون تردد:
"أنا أحبك، يا ميليسا".
ابتسمت، واقتربت، وهمست:
"وأنا أيضًا... أحبك".
ثم احتضنتها، وفي المشهد،
قالت بنبرة رقيقة:
"ألم تنسَ شيئًا؟"

قلت:

"ماذا؟"

قلت:

"قبلني... قبلتك لي هي إكسير الخلود".

اقتربنا...

لكن قبل أن تلتقي الشفاه،

رنّ هاتف الغرفة.

استيقظت،

وكانت الساعة السابعة صباحًا.

رفعت السماعة، فسمعت موظف الاستقبال يقول:

"سيدي، فتاة سألت عنك وتركت رسالة".

سألته:

"هل أخبرتك باسمها؟"

قال:

"على الظرف مكتوب: من ميليسا".

طلبت منه أن يرسل الرسالة فورًا.

عندما وصلت، أمسكتُ الظرف،

وكان مكتوبًا عليه:

من: الجميلة ميليسا

إلى: المتنرد الكلاسيكي

فتحت الرسالة وقرأت:

عزيزي المتنرد:

أريد مقابلتك عند الغروب، في المقهى المجاور للفندق الذي

تقيم فيه.

أريد أن أراك مرة أخرى... إنني أهيم شوقاً.

مع كل الحب،

الجميلة ميليسا

عندما قرأت الرسالة، شعرت بأن العالم أجمع يحتضنني،
وأن الاحتفالات تملأ داخلي، كأنه عيد لا يشبه سواه.
أخذت حمامي، وصعدت إلى غرفتي، ثم انتقيت أفضل ملابسني.
وضعت عطراً من نوع "سلفاتوري فيراغامو"، ولماذا هذا النوع
تحديداً؟

لأن ميليسا كانت قد أخبرتني في لقائنا الأول أنها تحبه بشدة.
أعددت كوباً من القهوة، وجلست في الشرفة، أستمع إلى مقطوعة
"الخريف" من "الفصول الأربعة" لأنطونيو فيفالدي.
أشعلت سيجارتي، وأنا أراقب ضوء النهار ينسحب ببطء، كأنني أعدُّ
الدقائق بلهفة الغائب العائد.

وحين حلّ الغروب، ارتديت ملابسني.
وجدتها في غاية التألق، وفي حالة التخدير التي كنت أعيشها، لم
أحرك قدمي نحوها...
بل قدماي هما من جذبتاني إليها.
وقفتُ عندها، وتبادلنا السلام.
وعندما لمستُ يدها، شعرتُ كأنني لمستُ الحياة ذاتها، وأخذتُ من
الموت إذنًا بالبقاء.

جلسنا في المقهى، وطلبنا إسبريسو، وامتدّ بيننا حديث طويل.
وبعد الجلسة، تمشينا قليلاً، حتى وصلنا إلى العبارة.
صعدنا إلى أول عبارة متجهة إلى روما.
وحين وصلنا، سرنا على أقدامنا حتى بلغنا الكولوسيوم.
كان وجهها مرسوماً عليه السعادة، كأن كل الطُرق قادتُها إلى هذا
اللقاء.

تجولنا في المكان حتى جلسنا من التعب.
وفي تلك اللحظة، وجدت نفسي أحتضنها، وهي تبادلني العناق.
بعد هذا المشهد، شعرت أن الحلم بدأ يتجسد.

حكيتُ لها أنني رأيْتُها في حلم تلك الليلة،
فقالت بابتسامة: "وأنا أيضًا"...

سألتها: "وبماذا حلمت؟"

فحكّت لي ما حدث معي تمامًا.

دهشتي لم تكن في تطابق الحلمين... بل في تناغم الأرواح.

اقتربت مني، وابتسمت، ثم قالت:

"أتعلم؟ كنت أبحث عنك".

ضحكتُ بخفة وأجبتها:

"ومن يبحث عن أحد في هذا العالم... ينجح دومًا في إيجادهِ".

جلستُ أمامي، وبدأنا نتحدث عن الكتب، والموسيقى، والحياة.

كانت تحب الأدب الفرنسي، وكنتُ ميّالًا للفكر الروسي، لكنها أحبّت
فيّ هذا الاختلاف.

قالت لي:

"أنت لست كباقي الرجال الذين التقيتُ بهم... فيك شيء قديم، شيء

يشبه الكتب التي أحبها، واللوحات التي كنتُ أرسمها في صغري".

فأجبتها وأنا أنظر في عينيها:

"وأنت... أول امرأة تشبه الحلم، ولا توقظني منه".

مرّ الوقت سريعًا، كأننا نعيش داخل فيلم كلاسيكي، لا نسمع فيه إلا
الموسيقى التصويرية وضحكاتنا المتناغمة.

بدأتُ أراها يوميًا. كنا نلتقي في نفس المكان، في نفس التوقيت،

دون اتفاق، كأن قلوبنا اتفقت قبل ألسنتنا.

كنا نتمشّي في شوارع صقلية، نضحك، نتحاور، ونتبادل الكتب.
كانت تُهديني روايات فرنسية، وأهديها ترجمات روسية.
صرنا نعيش بين صفحتين، نكتبهما معًا، دون أن ندري.
أهدتني في أحد الأيام وردة، وقالت:
"إن ضاعت الوردة، سأبقى أنا زهرتك".

ومنذ تلك اللحظة، لم أعد أراها كأنتى عادية...
بل رأيتها حياةً كاملة.
فتاة صنعت بداخلي موسيقى لم أكن أعلم أنني قادر على سماعها.
كنتُ أنظر إليها، فأشعر أن العالم صار قابلاً للعيش،
وأن هذا الكوكب، رغم دماره، ما زال يحتفظ بجمالٍ خفيٍّ... اسمه
ميليسا.

حتى السجارة تغيّر طعمها بجانبها،
وصوتها صار أعذب من السيمفونيات،
وعيناها أصبحتا أعظم من أي لوحة مررتُ بها.
بدأت أكتب من أجلها... حروفًا لم أعرف يومًا أنني أملكها.
لم أكتب عن الحب من قبل،
لكنني الآن أكتبه بلغة لا يفهمها سواها.

كل يومٍ يمر، كانت تزداد قربًا،
حتى نسيْتُ العالم، ونسيْتُ اسمي،
ونسيْتُ الثورة، والفقر، والشتات...
وتذكّرت شيئًا واحدًا فقط:
أنني أحب.

فكرت ألف مرة قبل أن أترف لها بحبي،
لكن... معركتي مع الحياة تطاردني.
كم أنت لعين، أيها الحب...
وكم أنت لعينة، يا ميليسا...
سلبت قلبي في إيطاليا،
لكن... عدم وجوده في الأيام القادمة
ربما يعيد إليّ قلبي المخدر،
وأعلم كيف سأعيش...
ربما سأعيش.

الفصل الثالث

إنفصام الحب ١

(معركة الفراق)

الحياة... ليست مجرد حياة على هذا الكوكب، بل هي حرب، صراع.
قلوب البشر أصبحت كالحجارة، ولكن الاستسلام ليس في قاموسي.
حتى أتى الحب، وأضعفني بأفيونه اللعين.
أصبحتُ أسأل نفسي:
هل الحب نعمة أم نقمة؟
هل الحب هدية من الله، أم ابتلاء؟
انتهى مفعول الأفيون... وبدأت أعراض الانسحاب.
ماتت عروقي، وتجردت من كل المعاني الإنسانية داخلي.
خرجتُ من الظلمات إلى النور، لكن الحب قذف بي مرة أخرى إلى
الظلمات...
لا، بل إلى قاع الظلمات،
حيث لا مكان للعيش سوى بالقوة.
كلما نظرت إلى المرأة، رأيت نفسي، لكن صدري مفتوح، وقلبي قد
خُلع منه.
ها أنتِ تجهزين عليّ، يا من جعلتِ مني أفضل روائي على الإطلاق.
شكرًا لكِ يا ميليسا... وسحقًا لكِ.
وبعدك، سحقًا لهذا العالم اللعين.

كما قال شكسبير:

"ساعتنا في الحب لها أجنحة، ولها في الفراق مخالب".
صدقت يا شكسبير... مخالبُ الفراق فقأت قلبي،
بينما كنتُ مخدراً بأفيون الحب،
وتفرق دمي في كل ثورة أثورها لأجل نفسي.
ذلك هو الحب؟ لا... بل تلك هي الخديعة الناعمة التي تكسرت على
صدري.

حين احتضنت ميليسا في حلمي وقالت:
"قبلتك لي هي إكسیر الخلود"

لم يكن إكسیراً... بل سُمّاً، وشربته بإرادتي المطلقة.
لو كنت أعلم أن الحب بهذه القسوة...
فسحاً لك، أيها الحب.

لا أدري كيف وجدت نفسي في فرنسا.
جسدي هناك، أما قلبي، فقد بقي في جحيم ميليسا.
حلّ الشتاء، واقتربت السنة الجديدة، والسماء غطتها الغيوم.
في الطريق إلى باريس، شعرت بشيء في صدري... إحساس ثقيل
بأنني سأواجه شيئاً لا يُحتمل.

كنتُ أقرأ في ملامح ميليسا علامات لا أفهمها.
نظراتها لم تعد كما كانت... هناك برودة لم أعتدها.
كأن شيئاً يتسلل من بين أصابعها، وأنا لا أملك أن أوقفه.

حزمتُ أمتعتي من الفندق، وعند خروجي، وجدتُها قد حزمت
أمتعتها أيضاً،
تنتظرني عند باب الفندق.

وهنا لاحظتُ شيئاً غريباً...
كانت نظرة عينيها مختلفة هذه المرة.
عينها اللتان كانتا تلمعان من البهجة قد انطفأتا،
بل كانت هناك نظرة وكأن الجحيم يحدّق بي.
وقد كان الجحيم... لا، بل الشيطانة بعينها.
رأيت عينيها على حقيقتهما، ولم تكن بحاجة إلى قرون؛
نظرتها كانت كافية.
ذهبنا معاً إلى الفندق في باريس،
وحين وصلنا، وجدتها جالسة في الشرفة، تتأمل السحاب الرمادي.
قالت لي:
"أريد أن أتجول في المدينة قليلاً".
قلت لها:
"ارتدي أفضل ما عندك... أنا أيضاً أرغب في الخروج".
ذهبنا، وتمشّينا حتى وصلنا إلى الشانزليزيه.
وعندما قطعنا الشارع، وجدتها تنهمر بالبكاء.
كانت تلك أول مرة أراها تبكي.
قالت لي:
"كان حلم عمري أن أذهب إلى هذا المكان".
مسحت دموعها، وجلسنا في مقهى "بيلوي".
ومن هناك... بدأ الانهيار.
بدأ السحق... والتدمير.

جلسنا، وبدأتُ الحديث، لكن عينيها لم تكن معي.
كانت تتبعان شابًا يدخل المقهى،
وسيمًا، أنيقًا، وسماته تنطق بالثراء.
أنطونيو... الأرستقراطي المتأنق،
يرتدي بدلة رمادية أنيقة، يضع ساعة من الذهب الأبيض،
ويمسك بسيجارة من نوع "جولواز" كأنه يحمل العالم بين يديه.
وكان، للأمانة، شديد الوسامة...
يا رب، سامحني على تلك الكذبة!
في الطريق إلى باريس، كنت قد لمحتَه يحدّق بها في محطة القطار،
لكني تجاهلت الأمر... لم أظن أن تلك النظرة ستتحول إلى طعنة.
تركنتي وذهبتُ له بكل شيء...
من أجل أمواله الطائلة، من أجل عالم ليس فيه مكانٌ لقلبي.
في طريق عودتنا إلى الفندق، كانت شاردة،
تردّ بكلمات مقتضبة، وتبتسم دون روح.
كان شيء ما يتغيّر في وجهها...
من إشراقة البهجة إلى تجاعيد الجفاء.
كنت أتحدّث، وهي تكتفي بالتحديق في الفراغ،
كأن حديثي يمرّ من حولها ولا يمسه.
وها هي قرونها تبدأ بالنمو...
سبحانك ربي! شيطانة تعشق شيطانًا.
اللعة عليكما.

في اليوم التالي، استيقظتُ فوجدتها تستمع إلى "إديث بياف"،
رغم أنها أخبرتني سابقًا بأنها تفضّل "فيفالدي".

لم أعر الأمر اهتمامًا، ظننتها لحظة مزاج عابرة.
ذهبتُ أعدّ القهوة، وعند عودتي إلى الشرفة، وجدتُها تدخن
سيجارة.

نظرتُ إليها وسألتها:
"منذ متى وأنتِ تدخين؟"

قالت، دون أن تنظر إليّ:
"منذ زمن طويل".

تجاهلتُ الوجود في نبرتها، وقلتُ:
"ألا ترغبين في الخروج اليوم؟"

قالت:

"لا... لا أَرغب".

وهذا ليس من عادتها...

خرجتُ لأشتري السجائر وجلستُ في مقهى بجانب الفندق، أحتسي
الشاي وأحدّق في اللاشيء.
عدتُ...

فوجدتها تحزم أمتعتها.

قلتُ لها، كأنني أعرف الجواب مسبقًا:

"إلى أين أنتِ ذاهبة؟"

قالت:

"راجعة إلى بلدي".

لكني كنت أعلم، بل أشعر، أنها لن تعود إلى بلدها،

بل إلى الأرستقراطي الذي سرقها من عينيّ.

قلتُ لها، وأنا أحاول أن أستجمع بقايا كبريائي:

"لماذا تتركيني؟ أنا لا أستطيع العيش بدونك... أنا أحبك".

ابتسمت ابتسامة لا أعرف، هل هي حنونة أم ساخرة، وقالت:
"وأنا أيضًا، ولكني أريد العودة إلى ديارى... وسأعود إليك مرة
أخرى".
عانقتها، وتبادلنا القبلات.
لكنني، في تلك اللحظة، كنت أعانق ظلًا.
كما قلت سابقًا، قبلتها لم تكن إكسير الخلود...
بل كانت سُمًا، شربته بإرادتي المطلقة.

حزمت أمتعتها ورحلت.
بقيت على هذا الحال ثلاثة أشهر،
كان قلبي وُضع في صندوق مغلق لا يعرف الضوء طريقاً إليه.
وفي أحد الأيام، خرجت من الفندق وتمشيت قليلاً،
حتى وجدت نفسي مجدداً في الشانزليزيه...
هناك، أمام مقهى "بيلوي"، جلست أحتسي القهوة الفرنسية،
أراقب الناس تمرّ، والبرد يتسلل إلى روحي.
حتى وقعت عيناى على مشهدٍ شلني من الداخل.
ميليسا...
لم تذهب إلى بلدها كما قالت.
كانت في المقهى ذاته، تجلس على الطاولة التي كنت أجلس معها
فيها من قبل.
لم تكن وحدها...
بل مع أنطونيو، الأرسقراطي الفرنسي، المتأنق دومًا،
الواثق بنفسه كما لو أن الأرض دُورت لأجله.
رأيتها تحتضنه وتقبله بنفس الطريقة، بنفس العينين،
بنفس الكذب الذي كانت تنثره عليّ.
رأيتها... ورأتني.
لكنها لم تُبال.
نظرت نحوي كما يُنظر إلى ظلٍ لا أهمية له،
ثم أكملت ضحكها كأنني لم أكن يوماً في حياتها.
هنا...
سقط القناع.

وهنا...

خلعت الشيطانة ثوبها الملائكي، وظهرت على حقيقتها.
انفصمت بعد تلك الرؤية.

تمزق قلبي بصمت لا يسمعه سواي.

عدت إلى الفندق، وانهمرت بالبكاء،

كأن روعي تعتذر من نفسها.

وكنت، بالنسبة لها، فأر تجارب...

تجربة شعورية مؤقتة، استخدمتني لتقيس حرارة قلبها، ثم أطفأته
بيديها.

حتى رنّ الهاتف.

رفعت السماعة قائلاً:

"ألو؟"

فأجاب موظف الاستقبال:

"هناك شخص يريد مقابلتك الآن."

نزلت وسألت:

"من الذي يريد مقابلتي؟"

فأشار لي:

"ذلك السيد الجالس هناك".

نظرت خلفي...

كان أنطونيو.

جلس كما لو كان ينتظرني منذ سنوات، نفس النظرة، نفس الغرور.

تقدّمت نحوه وقلت:

"مرحباً".

فنهض من مكانه، أمسك بيدي بقوة، وسحبني خارج الفندق،

حتى وصلنا إلى سيارته "الرولز رويس"،
ثم قال بصوتٍ منخفضٍ يحمل تهديدًا صريحًا:
"ميليسا لي... أحذرك من الاقتراب منها".
قلت له، وأنا أتَنفّس الغضب:
"أنت مخطئ. هي تحبني أنا. من تكون لتقول ذلك؟"
فردّ، وفي عينيه نظرة تحقّرنني كأنني قادم من طبقة لا يراها
البشر:
"أيها الحثالة... ستحبك على ماذا؟ ألا تنظر إلى نفسك؟ أنت مجرد
متسوّل".
وهنا...
شعرتُ بانفجارٍ داخلي،
كأن زيوس قد خرج من سماء اليونان، وأنزل صاعقة في صدري.
مات قلبي مرةً أخرى.
وعدتُ إلى الظلام.
ومعركة الحياة لن ترحمني...
وهنا، سأستعد.
قد أعود بعدها، أو... لا أعود.

الفصل الرابع

عشقت الدخان

عشقتُ الدخان...

السيجارة خيرُ العاشقين، بل هي أفضل من النساء.
اختارني القدر لأكون مدخنًا يومَ رحلتُ عني نفسي،
وما النيكوتين إلا صديقةٌ تواسي عقلي اللعين بحرق قلبي...
ولكن قلبي لا يعرف الخمود.

عدد السجائر التي أشعلتها طيلة حياتي أكثر من حياة إنسانٍ طبيعي،
ومع ذلك، لا زلتُ أشعر بقلبي ينبض، لا زلتُ أشعر بالحب والغرام.
إذا أراد الناس تلويث داخلي بأي شكل، فليبدأوا برئتَي أولاً.

مرّ عامٌ على فراق ميليسا.

أفيون الحب اللعين قتل قلبي حين انسحب من عروقي،
وتلوّث بنفط الفراق حتى أصبحتُ أحترق من داخلي...
حتى عشقتُ الدخان.

لم يكن هناك وطن يحتويه،
ولا امرأة تنقذني،

ولا حلم أركض نحوه.

أحزمتُ حقائبي، وذهبتُ بخيال روحي إلى روسيا.
وطبعًا، بنواياكم القدرة، ستقولون إنني ذاهب لأعثر على فتاة
أخرى...

روسيا، مصنع النساء الجميلات.

لكن لا...

ذهبتُ لأبرد قلبي بثلوج روسيا، لعلّ النار تخدم.
شيءٌ ما احترق داخلي، لكن لا... لا أريده أن يخدم.

ليس من أجل بعثه،
فمن سنة الحياة أن ما مات... لا يعود.
هذا فقط في الأفلام الهندية وها قد أطلع عنها الهنود أنفسهم.

وصلتُ موسكو،
الغيوم تُغطي السماء،
والبرد يصفني كأنه كفٌّ من القدر.
توجهت إلى أقرب فندق،
لكن الفنادق هناك لأصحاب النفوذ.
كنتُ أظن أن الغربية ستفتح لي أبوابها،
فإذا بها تغلقها بوجهي.
طردوني، وأصبحتُ مشردًا.
تجولتُ في برد روسيا القارس،
والصقيع يقطع جسدي،
حتى وجدتُ مجموعة من الشباب يجلسون حول نارٍ يتدفؤون بها.
جلستُ معهم، أشعلتُ سيجارتي، واكتفيتُ بالصمت.
دار بينهم حديثٌ عن القيصر، وأنه لا يستحق الحكم بعد أن هزمه
اليابانيون.
كان الغضب في عيونهم،
والتعب قد حفرَ وجوههم.
وبينما كنتُ أراقب النار، اقترب مني شابٌّ مراهق لا يتجاوز
الخامسة عشرة،
وطلب سيجارة.
قلتُ له، مندهشًا:
"أأنتَ تدخن في هذا العمر؟ ستقتل نفسك!"
فقال:
"سواء أشعلتُ السيجارة أم لم أشعلها، سأموت في الحاليتين..."

أموت ماذا؟ أنا ميتٌ بالفعل".
صدمتني كلماته، فأعطيته سيجارة وأشعلتها له في صمت.
سحب أول نفس، ثم قال:
"أنت لست من هنا... من تكون؟"
قلت له، وأنا أنفث الدخان:
"ولماذا تسأل؟"
ابتسم وقال:
"لا شيء... يقولون إن معرفة الرجال كنوز، ولي الشرف بالتعرف عليك".
شعرتُ بدفعٍ في صدري وسط البرد، فقلت له:
"وأنا أيضًا لي الشرف... أنا المتنرد، المتنرد الكلاسيكي".
قال:
"سعدتُ بلقائك، أيها المتنرد. وبما أنك غريب، لماذا لا تقيم في فندق؟"
أخبرته أنني طردت، فقطب حاجبيه وقال:
"القيصر اللعين استحوذ حتى على الفنادق!"
ثم نظر إليّ وقال:
"لا عليك... لديّ لك مكان".
قلت له:
"حقًا؟ وأين هذا المكان؟"
أجاب ببساطة:
"تعالَ معي".
أخذني من يدي، سرنا عبر الأزقة،
حتى وصلنا إلى بيته.

كان بسيطاً، لكنه دافئ.
فيه من الحنان ما لم أجده في أرقى الفنادق.
دخلنا، وسألته:
"أين والداك؟"
قال بنبرة جليدية:
"توفياً... وأنا هنا وحدي".
سكتُ لحظة، ثم قلت:
"لم تخبرني باسمك".
ابتسم وقال:
"يوري. اسمي يوري. تصبح على خير، سيدي".
أغلقتُ عيني، نفثتُ آخر نفس من سيجارتي، وقلت في سري:
"وأنت أيضاً... تصبح على خير، يا صديقي الغريب".

دخلتُ غرفتي، وتمددتُ على السرير.
وحين حاولت النوم، سمعتُ صوت ميليسا يناديني...
واضح أن أفيون الحب ما زالت آثاره في عروقي.
شعرتُ باهتزازٍ في الهواء، كأن أحدًا يدقُّ على نافذة روحي.
فتحتُ عيني، فرأيتُ طيفها يحاول اختراقي،
يحاول سحبي إليه،
لكنني طعنتُ قلبي.
وقبل أن أنام، أشعلتُ سيجارة.
عشقتُ دخاني،
وقايضتُ الحب بالسجائر.

في الصباح التالي، استيقظتُ ولم أجد يوري.
وعندما نظرتُ إلى جانبي، وجدتُ ورقةً مكتوبًا عليها بخطٍّ بسيطٍ
مرتبك:

سيدي المتمرد،
ذهبتُ إلى العمل، وتركتُ لك علبة سجائر في درج المنضدة.
الفطور جاهز.
يومًا سعيدًا.

يوري

تأملتُ الخط، كأنه يكتب بقلبه لا بيده.
خرجتُ إلى المطبخ، لم أجد سوى خبز وطبقٍ من "الكاشا"
الروسية.
تناولتُ الفطور، وذهبتُ إلى الغرفة، فوجدتُ علبة سجائر بيضاء، لا
تحمل أي اسم.

أخذت سيجارة، أشعلتها،
وعندما أغلقت الدرج، لمحت كتاباً مغطىً بالغبار بعنوان:
"العمل المأجور ورأس المال" – كارل ماركس
سحبت الكتاب، نفضت عنه الغبار، وغصت فيه.
كل سطرٍ كان يطرد ميليسا من داخلي،
ويوشم قلبي بالمنجل والمطرقة.
حين عاد يوري من عمله، لمح الغلاف في يدي،
تغير وجهه فجأة، ارتجف صوته، ثم صرخ:
"من أين وجدت هذا الكتاب؟!"
قلت:
"في درج المنضدة".
قال:
"هذا الكتاب... سبب موت أبي وأمي".
سألته، مصدوماً:
"كيف يمكن لكتاب أن يقتل؟!"
أجاب:
"ليس الكتاب من قتلهم، بل ما بداخله".
أكمل، وعيناه تنظران في الفراغ:
"أبي كان عاملاً، وأمي مزارعة.
أحباً بعضهما بسبب تلك الأفكار،
وذهبا في مظاهرة ضد القيصصر.
أعدما.
توسلتُ إليهم، لكن لم يستمع أحد.
وكان آخر ما قاله أبي:

لا تنحني،
ويومًا ما، سيأتي من يرفع رأسنا إلى السماوات.
لو كان موت أبيك وأمك سيؤلمك،
فبقاء القيصر سيؤلمك أكثر بكثير".

خرجتُ من البيت أبحث عن عمل.
لا يمكنني البقاء عند يوري وأنا عاطل.
أثناء تجوالي، رأيتُ لافتة كتب عليها:
"مطلوب عمال في مصنع الحديد".
دخلتُ، المكان مليء بالعمال.
ذهبتُ إلى المشرف وقلت:
"أريد العمل هنا".
نظر إليّ بازدراء، وقال:
"لا نوظف الغرباء".
قلت:
"أنا بلا وطن. أعطني فرصة".
قال:
"إن أثبتَ نفسك اليوم، ستكون منّا".
عملتُ من طلوع الشمس حتى غروبها.
يديا تنزفان، لكني لم أشتك.
أنا من اخترت هذا الطريق.
في نهاية اليوم، جاءني المشرف، وقد تغيرت نبرته.
لم يعد يحدّق بازدراء، بل باحترامٍ صامت.
قال:
"غداً تعود في الخامسة صباحاً.
عملك يبدأ من جديد".
هزرتُ رأسي، وخرجت.
عدتُ إلى بيت يوري.

كان ينتظرنى على الباب.

سألنى:

"ماذا حصل؟"

قلت:

"وجدتُ عملاً".

قال:

"أين؟"

قلت:

"فى مصنع الحديد".

قال:

"هؤلاء يستعبدون الناس. لا تقبل بالقليل".

قلت:

"فى هذا العالم، القليل... نعمة".

دخلنا.

بعد العشاء، سألته عن الكتاب.

قلت:

"أشعر أنه يشعل شيئاً بداخلى".

قال:

"ذلك الشعور لن ينطفئ.

سيكبر، ويحرق كل أوهامك".

قلت:

"وأين الخلاص؟"

قال:

"الخلاص؟ فى الفكرة... فى التمرّد... فى الثورة".

تلك الليلة لم أنم.
جلستُ على الشرفة أكتب رسالة...
إلى كلّ من عرف الحب، ثم خسره.
إلى كلّ من كُسر وتظاهر بالصلابة.
إلى من يحمل النار في قلبه، والثلج في عينيه.
لم يكن الحب خطأنا... بل ثقتنا المفرطة.
لم تكن الوحدة لعنة... بل خلاصاً.
لم يكن الفقر ضعفاً... بل صوتاً مكبوتاً.
هذه النار في داخلك... لا تطفئها.
لأنّها أنت.
لأنّها الدليل على أنك حيّ.

بقيتُ أعمل وأعمل، حتى أتى يوم ٢٥ أكتوبر.
ذاك اليوم... لم يكن عادياً.
كان محفوراً في ذاكرة الشرف والتمرد.

صحتُ على حشود الجماهير.
رأيتُ يوري في المقدمة.
خرجتُ معهم،
فرايتُ رجلاً أصلع قصير القامة، يخطب في الناس.
هو فلاديمير لينين.

قال:

"المتفقون أقدر الناس على الخيانة، لأنهم أقدر الناس على
تبريرها.
الكلام عن الممكن عبثٌ إذا لم نبرهن عليه بالفعل.
يمكن لرجل واحد يحمل مسدساً أن يسيطر على مائة من الغزل.

حرية الصحافة؟
إنها مجرد شراء الكتاب لصالح البرجوازية.

يا عمال العالم، اتحدوا!
فليس لديكم ما تخسرونه...
سوى أغلالكم".

صرخ يوري:

"يعيش الشعب! يعيش لينين!"

فقامت الثورة البلشفية،

وأعدم القيصر،

وولد الاتحاد السوفيتي.

لكن قبل ذلك بلحظات، حين بدأ لينين يخطب،

وقفتُ بجانب يوري، وسألته قائلاً:

"من هذا الرجل؟"

قال لي:

"هذا من سوف يخلصنا من العذاب الذي نحن فيه".

العدالة أقيمت.

التحقّت بالعمل في مصنع الحديد بجانب يوري.

بدأتُ من الصفر،

لكنّ روحي كانت تحفر في الحديد كما لو كانت تحفر طريقها إلى

الخلاص.

توفّر لي السكن، والراتب، وسجائري...

وزالت سموم "أفيون الحب" من دمي،

لكن قلبي... لا ينسى.

عملتُ بكفاحٍ لا يهدأ.

وكلما تحدّث لينين عن جشع الرأسمالية وسحق الفقراء،

كنتُ أستحضر وجه أنطونيو،

ذلك الأرستقراطي الفرنسي، الذي سرق مني الحب،
وسخر من فقري.

كلمته لا تزال تلسعني:
"أنت مجرد متسول".

ذلك الألم...

هو ما صنع عزيمتي.

عملتُ بيدي وروحي.

وسرعان ما تمت ترقيتي إلى مشرف، ثم رئيس للعمال،
لا بالحظ، بل بالدم والعرق.

الحزب الشيوعي لاحظني.

العمال أحبوني.

أصبح لي اسم... واحترام.

أحببتُ العمل،

حتى وإن استنزف دمي.

فروسيا منحنتني ما لم يمنحني العالم من قبل:

مسكنًا، طعامًا، وحتى سجانر "بيلوموركانال"،

التي أصبحت رفيقتي بعد كل يومٍ طويل.

كلما لامس الحب طريقي، أطفأته بالدخان.

أما الظلام الذي سكنني طويلاً،

فقد صرّت أنيره بعيني.

وهنا، إن كنتم لا تمانعون، سأشعل سيجارة... احترامًا لكل لحظةٍ
صنعتني.

وذات يوم...
ذاع صيت مصنعنا حتى وصل إلى الحزب.
جاء وفدٌ رسميٍّ من موسكو،
وكرمونا،
ودُعيتُ لإلقاء كلمة أمام الجميع.
صعدتُ إلى المنصة،
ارتجفت يداي لحظة، ثم قلت:
"أيها الإخوة الكادحون...
كلُّ منا يواجه حرباً...
لكن أخطر الحروب ليست تلك التي تحمل فيها سلاحاً،
بل تلك التي تحمل فيها قلباً.
الحرب النفسية، الحرب الداخلية،
حربك مع ذاتك،
مع خوفك، مع ضعفك،
مع كل صوت يخبرك أنك لا تستحق.
سيحاولون إحباطك.
سيقولون إنك لا تصلح، إنك مجرد عابر.
لكن المعركة الوحيدة التي تُهزم فيها،
هي تلك التي تنسحب منها.
قاوم...

حارب من أجل حلمك،
لأنه حين تفقد الحلم... تفقد المعنى.
ومن يتخلى عن حلمه،
يموت واقفاً.
فلتكن صيحتنا جميعاً:
الحلم أو الموت... الحلم أو الموت... الموت!"

اشتعل التصفيق.
العمال هتفوا:
"يعيش الشعب! يعيش لينين! عاش الشعب الكادح!"
ظلت روح الكفاح تجري في عروقي،
وأحببتُ العمل...
لأنه كان وسيلتي لمقايسة الحب
بالسجائر،
التي لن أألق عنها،
بل هي من ستألق عني.
بيضاء... تلك البشرة المشتعلة،
التي خلقت داخلي ظلاماً لا يُحتمل.
حين حلت الاستراحة،
ذهبتُ إلى مكتبي.

طلبتُ كوبًا من الشاي،
وأشعلتُ سيجارتي.
راودتني ذكريات "أفيون الحب"،
لكنها طردت من عقلي،
بينما بقي قلبي يحمل رمادها.
عدتُ مساءً إلى المنزل.
شغلتُ "من أجل إليزه"،
أدخن بصمت.
حتى طرق أحدهم الباب.
فتحتُ.
كان يوري.

قال:
"ما هذه الموسيقى الرائعة؟"
هل لي بالجلوس؟"
رحبتُ به.
جلسنا في الشرفة.
الشاي والدخان يصاحباننا،
والغيوم تغطي السماء.

قال يوري:
"هل تؤمن أن الثورة تطهر الإنسان من ألمه؟"
قلت:
"أظنها تغيّر الواقع..."
أما الذكريات، فلا تطالها نار الثورة".
قال:
"الألم لا يزول،
لكنه يصبح جزءًا من قوتك".
قلت:
"أنا أهرب من نفسي بالدخان والعمل".
قال:
"الهروب لا يشفي... بل يؤجل الجرح.
واجهة ألمك".
قلت، كأني أخاطب ظلي:
"أبحث عن إجابات".
قال:
"الإجابات تأتي حين نكون مستعدين لسماعها".
بعد رحيله، نمت.
وفي اليوم التالي،
حضر ساعي البريد.
سأل:
"السيد المتمرد؟"
قلت: "أنا".

سَلَّمَنِي رسالة كتب على ظهرها:
"إلى المتمرد الكلاسيكي".

فتحتُ الرسالة، فقرأت:

"إذا كنتَ تقرأ هذه الرسالة، فأنتَ ما زلتَ تحبني.

أنا ميليسا التي أحببتَها.

دفعْتُ ثمن خيانتِي.

أنطونيُو تخلَّى عني.

سامحني... أريد أن أراك.

أريد أن أعود إليك، إن كنتَ ما زلتَ تؤمن بأننا نستحق فرصة
أخرى.

ميليسا"

شعرتُ بشيء يتحرك في صدري...

لكن، لا.

لن أعود لامرأة رمتني في الهاوية،

ثم جاءت تبكي على أطلالها.

أمسكتُ الرسالة.

أشعلتها،

تركتها تحترق،

حتى تحوَّلت إلى رماد.

ثم أشعلتُ سيجارة،

ونفثتُ الدخان ببطء.

وقلتُ في سري:
"اللغة على ماضيك... وعلى من شاركك خيانتك".
وها هي معركة الحياة تعود إليّ من جديد...
لكنني جاهز،
حتى ولو كنتُ بلا درعٍ أو سيف.
كُنْ معي، يا إلهي.

الفصل الخامس :

إنقسام الحب ٢

(الحب أم الحرب)

أصبتُ مريضًا بالانفصام...
وليس أيّ انفصام، بل هو انفصامُ الحب.
هذه الكلمة ليست مجرد مرضٍ نفسيٍّ كما يراه الأطباء في الأفلام،
يمدّدون المرضى على الأرائك،
ويجلس الطبيب في صمتٍ متأمل، ينفث دخانًا من غليونه،
بينما يتظاهر بالإنصات لمأساتهم.
لا، لا، لا...

بالنسبة لي، الكلمة أكبر بكثير من أن تُختزل في مشهدٍ سينمائيٍّ
رتيب.

ألف من ألم،
نون من ندم،
فاء من فتن،
صاد من صدمة،
ألف أخرى من احتراق،
ميم من موت...
هذا هو انفصامُ الحب،
يا خيانتني الجميلة،
ذاك الذي أصابني بعد فراقنا،
وبعد رسالتك التي تطلبين فيها العودة.
بعد أن احترقت من الداخل،
تطلبين أن تعودني...

لكن، إلى ماذا ستعودين؟
إلى الأنقاض؟
كيف لعاقِل أن يهدم منزله بيده، ثم يتوقَّ إلى السكنى على أطلاله؟
هل نسيتِ حجم الركام؟
هل نسيتِ الجدران التي بكت حين سقطت؟
كان كل شيء بيننا حُلماً...
وأنا أعلم جيداً أنه لم يكن إلا حُلماً رائعاً،
سيمرَّ كحُمى،
كما تفعل الأحلام حين توقظنا من وهجها بألم باهت.
كان حُلماً لمستَه يداي للحظة،
ولم أرِدْ له أن ينتهي.
كنتُ أريده ذكرى أحتفظ بها،
إن انقلبت سفينة حبنا يوماً ما.
أنتِ من أحببتُها بجنون،
أنتِ من أشعلتِ نيرانك في قلبي،
أنتِ من جعلتِ حياتي تتراقص على جمركِ كأنها عاصفة.
من تركني في العتمة؟
من عذَّب قلبي دون رحمة؟
من جعلني، وأنا بين ثلوج روسيا،
أصرخ باسمها حتى ذاب الثلج من وجعي؟
إنها أنتِ.

أحترق...

أُتقد...

وأسقطُ محترقاً من جديد.

ناركِ لا تزال تشعل قلبي يا بلاني...

آه، يا بلاني...

تعبت...

تعبتُ من مشاعري، تعبتُ من التفكير.
كنتُ في حياتك مجرد محطة، مجرد فصل سريع في روايتك الطويلة.
تعبتُ من الانتظار لشخص لم يهتم بي،
بينما أنا أموت في وحدتي،
وأنت لا تبالين... لم تكوني يوماً كذلك.

كنتِ تعامليني ببرود قاتل،
بينما قلبي يذوب عشقاً فيك.

اسألي...

اسألي ثلوج روسيا التي ذابت من صراخي باسمك.
اسألي الكولوسيوم، الذي كاد ينهار من ذكرياتنا به.
اسألي مقاهي الشانزليزيه،
التي نُقشت مقاعدها بأسمائنا.

وأنتِ تنقشين أسماءنا على المقاعد،
كنتُ أنا أنقش ملامحي على جدران المصانع الرمادية في موسكو.

ما زلتُ في روسيا...

أعمل، أقاتل، أكتب، وأحارب النسيان.
أدعم العمال والفلاحين،
حتى توفي لينين، وجاء ستالين.

جاء الطاغية...

الذي استلم روسيا بمجراف زراعي،
وتركها بسلاح ذري.

كنتُ أعمل في عهده عملاً شاقاً،
يحتاج إلى ثلاثة رجال،
لكنني أحببت العمل أكثر مما أحببتك.
وفي المصنع، أصبحتُ ذا شأنٍ بين الناس.

ومنذ ذلك اليوم،
صار شعاري الذي لا يفارقني:
"الحلم أو الموت."

عاش التمرد في داخلي،
حتى امتلأ به كل شبرٍ من جسدي.
سبع سنواتٍ من العرق،
من الشغل المتواصل،
من الصراخ في الحديد البارد كي يسخن بحلمنا.

كنتُ أقايض الحب بالسجائر...
وكل شيءٍ كان متوقفاً: المسكن، الطعام، التعب، والنسيان.
ثم جاء ستالين إلى الحكم.
وتحوّل الشقاء... إلى قسوة.

عشتُ أعمل في عهدٍ لا يعرف الرحمة،
وتحوّل الكدح إلى وحشٍ داخلي،
تعطّش للعمل أولاً،
ثم تعطّش للدم.

كأنّ شراسة العمل جعلت منا،
نحن العمال، وحوشاً متعطّشة،
نُرهق في النهار، ونرتاح في قاع وجدانٍ غريب.
وكأنّ العذاب صار وقوداً للطمأنينة...

كلما استمعتُ إلى خطابات لينين،
كلما فتحتُ صفحات ماركس،
شعرتُ أن كريات دمي قد نُحت عليها المنجل والمطرقة.

روح الكفاح تنمو داخلي،
ولا شيء يُطفئها.

أقسمتُ أنني لن أترك المصنع،
إلا على جثتي.

لكن...
في وسط هذا اللهب،
كانت أعراض الانسحاب من أفيون الحب
تعود ببطء،
كأنها حربٌ داخلية...
بين المنجل والمطرقة،
وبينك.

هل كانت الحرب مع ميليسا؟
أم الحرب داخلي...
أكبر من أي امرأة؟

كنتُ أشعر طيلة حياتي أن الموت يرفضني في كل مرة أتقدم إليه،
لكن هذه المرة...
الموت ناداني بالاسم.

بعد انتهاء يومي، عدتُ إلى مسكني،
أعددتُ كوبًا من الشاي، وجلستُ في الشرفة.
كان الليل كثيفًا،
والذكريات أثقل من أي دخان.

أشعلتُ سيجارة، ثم ذهبتُ لأخلد إلى النوم،
وأنا أقرأ كتاب "رأس المال" لكارل ماركس...
كأنني أبحث عن عزاء في الصفحات.

في الصباح التالي،
بينما كنتُ أتهيأ للخروج إلى العمل،
سمعتُ طرقًا على الباب.

فتحتُ...
فإذا بساعي بريد يسلمني رسالة.

لون الظرف لم يكن مطمئنًا...
أحمر، كأنه ينزف تحذيرًا.

على ظهر الظرف:

"إلى: المتنرد الكلاسيكي – من الجيش الأحمر".

مزقتُ الظرف وبدأتُ القراءة:

"المتنرد الكلاسيكي،

الوطن الآن يدقّ طبول الحرب.

النازيون على الأبواب.

وعندما يُصاب الوطن، يصبح كل أبنائه الشرفاء جنوداً.

بناءً على كفاحك وجهدك في المصنع،

تم اختيارك للتجنيد بأمر من الزعيم ستالين.

استعدّ للقُدوم... نحن في انتظارك".

السكرتير العام للحزب

نيكيتا خروتشوف

ارتجفتُ قليلاً وأنا أُغلق الرسالة.

ربما من البرد، وربما من فكرة أنني في طريقي لأحارب...
مرة أخرى.

جمعتُ أمتعتي، وتوجهتُ إلى مقرّ الحزب،
أسأل عن مكتب الزعيم.

وفي الطابق الأخير،
وصلتُ إلى بابٍ خشبي سميك،

وخلفه...

رجلٌ غير مجرى التاريخ.

طرقْتُ الباب.

دخلتُ.

رأيتُه...

ستالين.

رجلٌ عريض المنكبين،

شواربه كأنها سياجٌ صلب،

وجهه لا يعرف الضحك،

وعيناه كأنهما مدينتان مغلقتان تحت حصار.

كان يجلس أمام نافذته،

واضعاً رجلاً فوق أخرى،

يمسك بغليونه، والدخان يملأ الغرفة كأنها غرفة محاكم تفتيش.

تقدّمتُ بخطى ثابتة.

قال لي، دون أن يرفع رأسه:

"سمعتُ أن مصنعكم كُرم أيام الزعيم لينين...

وأنتك رئيس العمال،

وأن العمال يكتنون لك احتراماً شديداً.

لذلك اخترتك أنت وعمالك للحرب ضد النازيين".

نظرتُ في عينيه، وقلت:
"لن نسمح لهتلر أن يدنس هذه الأرض،
لا لأننا نطيع أوامر،
بل لأننا لا نتحمل خيانة الأحلام".

رفع رأسه للمرة الأولى،
ابتسم ابتسامة لا تدق، وقال:
"هذا ما كنتُ أريد أن أسمعه.

عاش الشعب...
عاش الاتحاد السوفيتي...
يحيا العمال والفلاحون!"

ثم صبَّ كأساً من الويسكي البولندي، ورفع قائلًا:
"تبًا للنازية!
وتبًا لهتلر!"

قال لي أخيرًا:
"اذهب وجهّز أمتعتك،
ستسافر إلى ستالينغراد مع طلوع الفجر".
أديتُ التحية، وغادرتُ المكتب.

لكن قلبي ظلَّ عالقًا في الدخان...
لا أدري هل هو دخان غليونه...
أم دخان أفكارٍ التي تحترق من الداخل.

ذهبتُ إلى مسكني كي أعدّ أمتعتي للمعسكر، أنا والعمال.
كان يوري يصرخ بالحماس،
صوته يدوي في الأزقة:
"عاش الشعب!"
عاش الشعب!"

لكن وأنا أقترّب من العربية العسكرية،
شعرتُ بشيءٍ غريب...
كأن الماضي ينتظرني عند الزاوية،
كأن ذنبًا قديمًا يوشك أن يُولد من جديد.
رفعتُ بصري...

توقّف الزمن.

كانت هي.

ميليسا.

تسير بجانب السكن،
تشغل سيجارة فرنسية من نوع "جولواز"،
كما كانت تفعل في باريس...
بيدها نفسها التي أمسكتها ذات مساء،
وقسمتُ لها أنني لن أتركها.
عندما رأته...
رمت السيجارة وركضت نحوي.

احتضنتني بشراسة،
وكأنها تريد أن تخنق ذنوبها بعناقِي.
قالت، تتقطع كلماتها بين اللفظة والندم:
"الحمد لله أنك بخير!
أنا أبحث عنك في أرجاء روسيا منذ أن تركت فرنسا...
الحمد لله أنني وجدتكَ!
ما هذه الملابس؟
أنت ذاهب... للحرب؟"
نظرتُ في عينيها...
وقلتُ ببرود:
"نعم."
أنا في الجيش الأحمر.
ذاهب لستالينغراد".
ارتبكت ملامحها،
وانكسر صوتها بين الصدمة والخوف:
"ماذا؟
لا... لا يمكن!
لا تذهب!
ابقَ معي... نبدأ من جديد.
أنا... ما زلتُ أحبك.
أنا أحبك، مثلما كنت تحبني..."

هنا قاومت قلبي،
وسحبْتُها من بين ذراعي،
ودفعْتُها بعيداً...

وقلت، وصوتي يرتجف بمرارة:
"تقولين إنني بخير؟"
لا، أنا لم أكن بخير منذ تركتني،
منذ بعثني لذلك الأرستقراطي الناعم،
ذلك الذي يظن أن المال كافٍ ليشتري كل شيء... حتى الوفاء.
تركتني أذوب في شوارع الشانزليزيه،
أبحث عن ظلك في المرايا،
وأتوسل للذاكرة أن تمسح ملامحك".

صمتُ لحظة، ثم تمتمت:
"أنا ذاهب للحرب... لأدفن ما تبقى مني.
وأفضل الموت ألف مرة،
على أن أعود إلى حضنِ خاتني".
صعدتُ إلى العربية.

جلستُ بجوار النافذة،
أشعلتُ سيجارة،
وكنْتُ أرتجف،
لكن ليس من البرد...
بل من انهيارِ الداخلي.

لم أقاوم دموعي،
لكنها لم تكن دموع رجل،
بل دخانٌ نازل من قلبي،
كان كل سيجارة دخنتها
عادت لتحترق في عيني.

وفي قلبي،
قلت:

"الحرب أهون منك، يا ميليسا...
الحرب... على قسوتها، لا تكذب".

وصلنا إلى ستالينغراد.
أنا، يوري، والعمال.
الثلج يكسو الأرض،
والسماء ثقيلة، كأنها على وشك أن تنفجر غضبًا.
بنينا الخيام،
وكنّا ننتظر أن يأتي ملاك الموت ليحصد أرواحنا،
فداءً لوطنٍ اعتنقناه كما يُعتنق الحلم.
ثم جاء اليوم...
اليوم الموعود.
اشتعلت السماء بالنار،
وارتجّت الأرض تحت وقع المدافع.
المعركة بدأت.
انفجرت الجبهات،
وسمعتُ صرخات، وطلقات، ودخانًا كثيفًا يصعد كأنه أرواح تصعد
إلى السماء.
ورأيتُ الطائرات الألمانية تسقط فوق ثلوج روسيا...
تسقط كما تسقط اللعنات التي ظنّنت أنها ستحرق غيرها.
وقفتُ بجانب يوري،
الذي كان يهتف بكل قلبه:

"يسقط هتلر!
تسقط النازية!
يحيأ ستالين!
يحيأ الاتحاد السوفيتي!"
لكن فجأة...
انفجر الهواء.
ورأيتُ جسده يسقط.
رصاصه اخترقت عنقه،
وهوى بجانبى كزهرة أُصيبت في العاصفة.
ركضتُ نحوه.
أسندتُ رأسه إلى صدري.
كان ينزف...
لكن الابتسامة لا تزال مرسومة على وجهه.
قال بصوتٍ مكسور، يتلاشى:
"أبي... أمي...
ها هما يناديانى...
لقد حققتُ الشرف الذي ماتا من أجله...
قل... قل للوطن... أنني أحببته حتى آخر قطرة دم".
ثم مات.
ببساطة موجعة.

غطيتُ وجهه بعلمي...
علم الاتحاد السوفيتي.

ثم وقفتُ،
سحبتُ سلاحي،
وفجرت كل شيء.

أنا المتنرد...
وهذا صديقي.
ومن قتل صديقي... مات.

فتحتُ النار على الجنود النازيين حتى فرغ مخزن سلاحي،
ثم أعدتُ التعبئة، وأكملت.

رأيتُ الطائرات الألمانية تحترق واحدة تلو الأخرى،
وسمعتُ صرخات جنودهم تتلاشى كأغانٍ مذبوحة.

انتهت المعركة.
لكن معركتي لم تنته.

عدتُ إلى الخيمة.
كانت الصدمة لا تزال تسكن وجهي.

وجدتُ يوري في كل زاوية،
في كل ظلال النار،
في كل فتات تبغٍ نسي أن ينفثه.

جلستُ،
ووضعتُ يده الباردة في راحتي،
قلت له بصوتٍ خافت:

"فلترقد بسلام؁ يا ابن اللم...
وسأواصل عنك؁
سأحارب لأجلك...
وسأكتبك في كل ثورة".

استمرت الحرب...

وظللتُ أقاتل،

وأقاتل،

وأقاتل...

لكن شيئاً ما كان يتآكل في داخلي،

ليس فقط من الحرب،

بل من خيانة كل شيء آمنت به.

انتهت الحرب،

لكنها تركتني جندياً بلا جبهة،

ووطنياً بلا وطن.

وبعد سنواتٍ من الجبهات،

جاء زمن السكون...

زمن الحرب الباردة،

حيث لا رصاص، لكن كل شيءٍ بداخلنا ينفجر صامتاً.

أرهقتني صمت الجبهات،

فقدتُ الشغف،

فقدتُ المعنى...

فقدتُ يوري.

استقلتُ من الجيش،

وعدتُ إلى مصنع الحديد والصلب،

أبحث عن معنى الحياة بين صوت المطارق وحرارة الأفران.

كان الحديد يصرخ،
وأنا كنت أصرخ معه.

ثم أتى ذلك اليوم الأسود...
26 ديسمبر ١٩٩١.

استيقظتُ لأسمع الإعلان الرسمي:
تفكّك الاتحاد السوفيتي.

صوت غورباتشوف،
كأنه خنجر يقطع شريطاً كان يشدّ روعي إلى الحياة.

أصبُتُ بانهيار عصبي.
سقطتُ على الأرض.
غبتُ عن الوعي.

قالوا إنني كنتُ بين الحياة والموت،
لمدة عامٍ كامل.

وفي الغيبوبة...
رأيتُ كل شيء.

رأيتُ أمريكا تشتري العقول بالسوق الحر،
ورأيتُ العلم السوفيتي يُدهس في الميادين،
ورأيتُ المطرقة والمنجل يُقطعان من جذورهما.

رأيتُ ماركس يُسحب من الكتب،
ويُرمى في القمامة.

رأيتُ لينين يبكي وحيثاً في تمثالٍ مكسور،
ورأيتُ الفلاح والعامل...
الذين كانا يوماً رمز الوحدة،
يتقاتلان على المال،
مثل كلبين فوق جثة حُلم.
عدتُ إلى الحياة بعد عام...
أو هكذا قال الأطباء.
لكن...

هل من يعود من غيبوبته،
يعود حقاً؟

نظرتُ حولي،
فرأيتُ بلادي القديمة قد ماتت،
وأفكاري صارت تراثاً يُسخر منه.

لم أعد أجدني في المرأة،
ولم أعد أعرف لمن أنتمي.

غادرتُ البلاد،
وضعتُني في تابوت،
وأرسلتُ إلى بلدٍ آخر...

قالوا: "ربما يجد فيها حياة جديدة".

لكنني أعلم...
أنني كنتُ مجرد جثة مؤجلة الدفن.

وهنا، أيها القارئ...
أتركك على أبواب السؤال:
هل الموت سيقبلني أخيراً؟
أم سيتجنبني لعامٍ آخر؟
في عالمٍ آخر؟
بفصلٍ جديد... لا أعرف إن كنت سأكتبه.

الفصل الأخير:

قيامه من الظلام

ها أنا في قاع الظلام...
ذلك الظلام الذي دُفِنْتُ فيه منذ أن دخل أفيون الحب إلى قلبي.
الآن، أشعر بدخانٍ أسود يبتلع كلَّ شيءٍ من حولي،
وكنْتُ أضيء هذا الظلام بسجائري،
التي قايضتُ بها الحب طيلة تمردي،
حتى قلبي... تمردتُ عليه،
وأذقته طعم العتمة لعلّه يهدأ.
حين انهار الاتحاد السوفيتي، شعرتُ أنني انهرت معه،
وسقطتُ فعلاً.
دخلتُ بعدها في حالة "النوسفيراتو"،
تجاه أي عمل أو كدح...
حالة خالية من الحياة، لا نوم، لا دم، لا وطن.
في ظلال غيبوبة طويلة، كنتُ في مستشفى،
ملائكة الرحمة تراقبني عن قرب،
دون أن تدرك أنني لم أعد إنساناً،
بل شبحاً يحترق من الداخل.
النار كانت تسري في عروقي بدلاً من الدم،
حتى أصبحتُ متعطشاً للدماء،
كما كنتُ متعطشاً في الماضي للعمل، للنأر، للحب.
ذهبتُ بخيالي إلى رومانيا...
وجدتُ نفسي ممدداً في ظلام دامس لا يرى فيه شيء.
وحين حاولتُ النهوض، اصطدم رأسي بلوح خشبي،
فأدركتُ أنني داخل تابوت.

لكن غطاء التابوت انفتح وحده،
وتسرّب ضوءٌ شاحب من الأعلى...
نهضتُ، فوجدتني في قبوٍ داخل قصر قوطيّ قديم،
الفناء قائم، والجو مشبع برطوبة الموت،
لكنني لم أشعر بالخوف،
بل شعرتُ بالتحوّل.
نظرتُ إلى يديّ، فوجدت تجاعيدَ كأنني بلغت سن الشيخوخة،
لكنني كنتُ أرتدي ملابس أمير،
وكأن روعي استقرت في جسد دراكولا.
هل أنا هو؟
هل برام ستوكر يكتبني الآن؟
أم أنني أكتب الفصل الأخير من حياتي... بمداد الدم؟

اتخذتُ بضع خطوات حتى وصلتُ إلى باب القبو،
ثم صعدتُ السلالم المؤدية إلى الأعلى،
حتى وجدتُ نفسي داخل القصر...
قصر كلاسيكي، من طرازٍ قوطيٍّ بديع،
الشموع تشتعل من تلقاء نفسها،
والجدران تهمس بأصواتٍ خافتة كأنها تتذكر من مرّوا بها قبلي.
تجوّلتُ داخله، وعلى الجدران كانت هناك صورٌ معلقة...
صورٌ لي.
كان الكونت يراني منذ زمن،
كأنني كنتُ هنا... يوماً ما.
رأيتُ صورة لي وأنا أرتدي درعاً حديدياً،
وأحتضن أكثر فتاة أحببتها في حياتي... ميليسا.
وفجأة، خرج من الظلال خلفي،
وضع يديه على كتفي، وقال بصوتٍ عميق يصدح بأصداء الزمن:
"ها أنت قد صحت من جديد، أيها المتنرد الكلاسيكي...
أنت الذي حاربت من أجل الفقراء،
لا لشيءٍ إلا لإطفاء نار قلبك الذي احترق بـ ميليسا الإيطالية.
وأنت تحارب، كنت دموياً لدرجةٍ لا تُصدّق...
ها أنت، الذي كان الموت يرفضه في كل مرة...
هذه المرة رفضك، ثم أعادك للحياة مرةً أخرى...
آه... ظننتُ أنني لست بحاجة لتعريفك بنفسي، أنا الـ"...
قاطعتُه بابتسامة يكسوها الاحترام وقلت:
"لا حاجة للتعريف، يا من تحمل ظلال الليالي على كتفيك...
يا كونت دراكولا".

دخلتُ القصر مع الكونت، نتجول بين الجدران التي ازدانت
بصوري،

كان المكان يتنفس من ذاكرتي،
أو كان دراكولا تأثر بي كما تأثرتُ به...
بكاريزمته، وبشخصيته المخضمة،
وبنظراته المنومة التي تغرق الأرواح دون أن تلمسها.
وصلنا إلى طاولة طعام عظيمة، تفوح منها روائح تأسر الشهية.
سألته وأنا أأدق في الأطباق:
"هل هذه الوليمة من أجلي؟"
ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:
"نعم... وهذه هي ميزة أهل ترانسلفانيا. نكرم من يتمرد مثلنا".
جلستُ، وجلس هو في الطرف المقابل.
ثم ظهرت ثلاث عرائس بديعات، تقدمن بكووسٍ لامية.
واحدة قدمت لي نبيذاً فاخراً، بينما قدمن للكونت كأساً مملوءاً...
بالدم.

رفع الكأس بهدوء، وارتشف أول رشفة.
لحظتها، رأيت الشيب يتلاشى من رأسه،
ومع كل رشفة، كان يصغر في السن، يعود إلى صورته الكلاسيكية
التي قرأت عنها في الكتب.
عندما فرغ من كأسه، قال بنبرة غامضة:
"أكلت جيداً، شربت كفايتك... تم تكريمك على أكمل وجه".
ثم أضاف بصوت أكثر عمقا:
"فكن سعيداً... فهذا آخر يوم لك كإنسان".
فجأة، مدّ يده إلى صدري، وأخرج قلبي ببطء،
كأنما ينتزع جرحي، لا عضوي...

عصره داخل كأس فارغ، وقال وهو ينظر في عيني:
"يا للهول... كل هذه السنين، والحب معتق في قلبك؟
وعند الفراق، ترشف الهم؟
وما زلتَ تطلب الخلود؟
بل ما تحتاجه... هو الراحة".
ثم أشار إلى عرائسه الثلاث، فحملنني برفق،
ووضعنني على سريرٍ حريريٍّ، كأني أمير في جنازته.
اقترب الكونت، وعصر قلبي مرة أخرى،
واحتسى الدماء ببطء، ثم همس:
"ها أنت الآن... مجرد من إنسانيتك.
في صحتك، أيها المتنرد...
وفي صحة الأيام القادمة".

وضعتُ يدي على صدي، فلم أشعر بشيء... لا نبض، ولا دفء،
فقط شقّ عميق خالٍ من أيّ حياة.
فجأة، ظهرت العرائس الثلاث.
تقدّمت إحداهنّ نحوي وهي تحمل قلبي بين يديها،
ثم وضعتّه في صدي ببطء، كأنها تُعيدني من العالم السفلي.
شهقتُ شهقةً حادة...
كأنني أغرق في بحرٍ من اللازم واللاوجود.
وضعت العروس يدها فوق قلبي وهمست:
"ها أنت قد وُلدت من جديد، أيها المتنرد".
ثم هتفنّ معاً بلغة رومانية قديمة:
"ريبيلول ايستي نيكوتا دي نو"
(ولد المتنرد من جديد).
دخلت بعدها في سباتٍ عميق...
لا أحلام فيه، ولا ظلال، فقط صمتٌ كثيف كأن الزمن توقف احتراماً
لولادتي الثانية.
دخلت بعدها في سباتٍ عميق...
لا أحلام فيه، ولا ظلال، فقط صمتٌ كثيف كأن الزمن توقف احتراماً
لولادتي الثانية.
وعندما صحوّت، نظرتُ إلى الغرفة، فبدت قديمة الطراز، لكنها
تفيض بسحرٍ كلاسيكيٍّ مخيف.

وقفتُ، تأملتُ يديّ... خاليتين من التجاعيد،
كانُ شبابي عاد إليّ، لا بمرور الوقت... بل بتوقّفه.

نظرت إلى المرأة، فلم أر انعكاسي...
لكنني رأيت ظلي، خاليًا من الطيبة القديمة، مشبعًا بالحدة والبرود.

تقدّمت العرائس الثلاث، وقالت إحداهن:
"تفضل، أيها المتنرد، الطاولة أعدت من أجلك".

دخلتُ القاعة، وجلست إلى الطاولة.
كان الكونت يجلس في الطرف الآخر، يراقبني بنظرة لا تخلو من
الفخر.

قال لي:

"حمدًا لله على سلامتك، أيها المتنرد.

الآن، تبدأ رحلتك الحقيقية.

لكن أولاً... تناول طعامك، ودخّن سيجارتك، واستعد لأوّل درس".

أكلتُ، وشربتُ، ثم جاءت إحدى العرائس تحمل علبة سجاائر مذهّبة،
مرصعة بنقوش فرعونية.

سألته، وأنا أمدّ يدي نحوها:

"ما هذا النوع؟ لم أر مثله من قبل".

قالت بابتسامة خفيفة:

"سجاائر مصرية تُدعى كليوباترا... أحضرها الكونت لك خصيصًا
من مصر".

أشعلتُ سيجارتي، وسحبْتُ أول نفس...
فشعرتُ كأن النيكوتين يُعيد ترتيب أفكاري،
وكان الدخان يطرد آخر بقايا الحب من صدري.

ثم جاءت العروس، وقالت:
"الكونت ينتظرك على سطح القصر".

أجبتها قائلاً:
"حسنًا، أنا قادم حالًا"...

أخذتني العرائس حتى وصلت إلى سطح القصر.
كان الليل ساكنًا، والهواء يعبق برائحة الغموض، وضوء القمر
يتسلل كعين خفية تراقبنا من السماء.
اقترب مني الكونت دراكولا، ثم وضع يده على كفي قائلاً:
"إذا كنت تريد أن تكون ذا شخصية ساحرة، يجب أن تنصت إلى
هذه الدروس:

- الدرس الأول: لا تضع سعرًا أعلى من قيمتك، فأنت هو
القيمة.
- الدرس الثاني: لا تُبجّل امرأة، فليست كل النساء عشتار.
- الدرس الثالث: إذا تخلّيت عن قانون الكبرياء، فاعتبر نفسك
قد متّ."

حان موعد العشاء، فتوجهنا إلى الطاولة وجلسنا في الموضع
المعتاد.
كنت أتناول طعامي بصمت، بينما كان الكونت يحتسي شرابه
المفضل... الدم.
وعندما انتهيت من طعامي، ورفع هو كأسه الفارغ، رفعت نظري
إلى الجدار، فوجدت صورة له مع امرأة ذات ملامح هادئة، وعينين
تمتلئان بالحزن القديم.

سألته في فضول:
"هل هذه حبيبتك، أيها الكونت؟"

قال وهو في حالة من الهيام:
"نعم... إنها حبيبتي الراحلة إيزابيث، فلترقّد روحها في سلام".
ثم تابع الكونت وكأنه يقرأ أفكاره، وقال:
"أنت تسأل نفسك الآن: ما هو قانون الكبرياء... أليس كذلك؟"
أجبتّه قائلاً:
"أنت على صواب، أيها الكونت دراكولا".
قال لي بهدوءٍ مخيف:
"تعال معي إلى غرفة المعيشة، وسأعلمك ما هو قانون الكبرياء".

ذهبنا إلى غرفة المعيشة، فقام بتشغيل الجرامافون، وبدأ الحوار مع بدء الموسيقى.

كانت المقطوعة هي "الحالمة رقم ٢" لشوبان. ثم أحضر كتابًا من المكتبة، وجلس في شموخ وكاريزما عالية، وقال:

"للكرباء قانون، والقانون فوق الجميع":

- المادة رقم (١): الاهتمام بمن لا يهتم بك إهانة.
- المادة رقم (٢): قدس نفسك وكن متيمًا بها.
- المادة رقم (٣): عندما تُخدش الكرامة، يُدفن الحب حيًا.
- المادة رقم (٤): الإهمال أولى خطوات الرحيل.
- المادة رقم (٥): البوح بالمشاعر محرّم، ومحكوم بالمؤبد.
- المادة رقم (٦): من ذهب بإرادته، لن يعود.
- المادة رقم (٧): من يرحل متعمّدًا يُنسى، ومن ينسأك يُنفى.
- المادة رقم (٨): من يرخصك بالتجاهل، أكرمه بالرحيل.
- المادة رقم (٩): لا حنين لمن لا يحنّ إليك.
- المادة رقم (١٠): الغياب الدائم، أفضل من بقاء بلا تقدير.
- المادة رقم (١١): من اختار الغياب، اعتبره غريبًا.

ثم أغلق الكتاب بهدوء، وقال لي وعينه تنطقان بالهبة:
"بعد تطبيق هذا القانون، قد ينكسر ما بداخلك، لتبقى متوازناً في
الخارج... لا تميل.
ها أنت الآن عرفت كل الأسرار.
كن إمبراطور نفسك، أيها المتنرد... ولا تسمح لأحد أن يجردك من
عرشك الداخلي".

بدأت بعدها تدريباً قاسياً لنفسي.
كنت أتجول في شوارع رومانيا، مرتدياً معطفي، وبنطالي القماشي،
وقبعتي، وأنا خالٍ من مشاعري الإنسانية.
لكن سؤالاً ظلّ يطاردني بصمت:
هل ما زال أفيون الحب يسكنني... أم أنني تحررتُ منه حقاً؟
جلستُ في أحد المقاهي في بوخارست، أحتسي القهوة وأدخن
سيجارةً مصريةً من نوع "كليوباترا".
وفجأة، وقعت المفاجأة...
دخلت ميليسا وهي تحتضن ذراع أنطونيو، ذلك الفرنسي المخنث،
وجلسا يشربان الشامبانيا الفرنسية.
حينها، بدأت أنيابي في النمو ببطء، لكنّي ظللتُ متماسكاً.
وعندما هما بالمغادرة، وقع بصرهما عليّ، فقال أنطونيو بنبرةٍ
يملؤها الازدراء:
"أهذا هو من كنتِ تعشقين؟ يبدو أن قهوته بالكاد تكفيه".
نظرتُ إليه في غضبٍ هادئ، ثم ناديتُ النادل قائلاً:
"أيها النادل... الحساب عندي".
مددتُ يدي إلى جيبي، وأخرجتُ مبلغاً من المال، ثم رميتُ به نحو
الطاوله دون أن أنظر إليهما.
عدتُ إلى القصر، فوجدتُ الكونت دراكولا وعرائسه يصفقون لي
بحرارة.
قال الكونت:
"ها أنت قد قُمت من ظلامك... أحبيك على ما فعلتَ بذلك المخنث".

سألتة بدهشة:

"لكن... كيف رأيتَ ما حدث؟ وأنت هنا في القصر؟"

ابتسم، وقال:

"بواسطة هذا..."

وفي اللحظة نفسها، هبط خفاش على عرشه، وكأنه جاء بالإجابة كاملة.

نظرتُ إلى الكونت باحترامٍ شديد.

كلما اقتربتُ منه، ازدادت رؤيتي وضوحًا... وازددتُ فهمًا للمعارك التي هُزمتُ فيها من قبل.

أخذني إلى قصرٍ آخر، من طرازٍ قوطيٍّ، وقال:

"هذا قصرُك الآن، ابدأ إمبراطوريتك، أيها المتنرد".

استدعى بعض العرائس الجميلات، وطلب مني اختيار ثلاثٍ منهن... اخترت عرائسي، وهنّائي الجميع على قصري ومقامي الجديد.

جلستُ على عرشي، وشعرتُ أنني أمتلك العالم بأسره.

طلبتُ من إحدى العرائس أن تُحضِر لي قهوة، وجلستُ في هدوءٍ متحدٍّ، وعندما وضعت الفنجان إلى جانبي، أشعلتُ سيجارة.

في هذه المرة، لم أقايض الحب فقط... بل قايضتُ إنسانيتي.

نظرتُ إلى المرأة...

فلم أجد قلبي، بل رأيت الظلام وقد ابتلعه.

لم يتبقّ منه سوى دخانٍ يتصاعد داخل صدرٍ فارغ... كأنه يحترق في صمتٍ أبدي.

سادخن سيجارة الآن...
اسمحوا لي، أعزائي القراء، إذا كنتم لا تمنعون...

في الليلة التالية، وبينما كنتُ في غرفتي أستمع إلى "لا كامبانيا" لنيكولو باغانيني، نادتنني إحدى العرائس قائلة:

"سيدي المتنرد، هناك سيده تنتظر بك بالأسفل".

ارتديتُ معطفي وقبعتي، ونزلتُ إلى غرفة الضيوف. عند دخولي، فوجئت.

كانت ميليسا جالسة هناك، على وجهها ملامح حزنٍ غائر، وفي عينيها ذلك الانكسار الذي لا تراه إلا في من فقد ظله. رأتنني كما لو أنها ترى شبحًا خرج من قبره دون أن يغادره. قالت بصوتٍ خافت:

"هل ما زلت حزينا بسببي، أيها المتنرد؟"

نظرتُ إليها في صمت، بعينين تحوّل فيهما الجليد إلى لهب، وبدأت أنياي بالتمو ببطء، وداخل صدري... تحرّكت حالة النوسفيراتو.

ناديتُ إحدى العرائس، فجاءتنني بعلة سجانري. أشعلتُ واحدة، واستحضرت في عقلي المادة رقم (١١) من قانون الكبرياء:

"من اختار الغياب، اعتبرناه غريبًا".

ثم قلت ببرودٍ قاتل:

"أحزن؟ من أجل ماذا؟ هل تقابلنا من قبل؟"

ارتبكت، وقالت بصوت متهدّج:

"ألا تعرفني؟... أنا ميليسا... هل نسيتني بهذه السرعة؟"

نظرتُ إليها طويلاً، ثم همست:

"أه... نعم، تذكّرت.

أنتِ من تركتِ شاباً ثائراً يحترق في وحدته، وذهبتِ إلى أحضان المال.

أنتِ التي بعْتِ قلباً نقياً مقابل مقعدٍ في سيارة رولز رويس، ومائدة من الشمبانيا".

قالت بانكسار:

"عاهرة؟..."

ثم أجهشت بالبكاء، وقالت بصوت مكسور:

"لماذا أنا عاهرة؟... بحق السماء، أجبني".

نفثتُ الدخان في وجهها، وقلت:

"لست بحاجةٍ إلى تسمية، بل إلى ضميرٍ يُخبرك بما فعلت.

كيف لمن دفنته بيدك أن تعودني وتطرقني بابه من جديد؟

كيف لمن باعَتْ من أحبّها لأجل رجلٍ يظنّ أن المال سيُدفن معه...

أن تطلب قيامة ثانية؟

لقد تجاوزتِ حدود العهر.

ومع ذلك، حين عاد إليك النور، ركلته إلى الظلمات... والآن تطلبين

العودة؟

سحقاً لك... آلاف المرات".

خرجت من القصر باكية... لكنّ دموع التماسيح لا تخدعني.
راقبتها من سطح القصر، وهي تمزّق ثيابها وتصرخ كاذبة، مدّعية
أنني حاولت التحرش بها.

لم تمض دقائق، حتى وصل أنطونيو بسيارته الـ"رولز رويس"،
فاندفع نحو القصر، لكنّ السماء أطلقت جيشًا من الخفافيش، التقّوا
حول السيارة كما لو كانوا يبتلعونها.

وعندما نزل أنطونيو وميليسا، تقدّمت العرائس الثلاث،
وابتساماتهن تحمل وعدًا بالموت. سحبته بنظراتهن إلى إحدى
الغرف، وهناك... بدأ الطقس الدموي.

التهمنه العرائس بشغفٍ مروّع، وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة، كانت
على وجهه ابتسامةٌ بلهاء... كأنّ موته كان مكافأته.
فلترقد روحه في سلام.

في مشهدٍ آخر، صعدت ميليسا السلالم كسكرةٍ تتلو ترنيمة عشقٍ
قديم.

احتضنتها، وفي لحظةٍ عبثية، خُيّل إليّ أنني استبدلت الفرنسي
بها... فقط لحظة.

أمسكت بيدها، وقُدتها إلى سطح القصر.

كانت تتمايل تحت ضوء القمر، ورحنا نرقص كما لو أننا نحيا نهاية
العالم.

همست بأسى:
"إني نادمة على ما فعلته بك... إني أ..."
فقاطعتها، واضعاً إصبعي على شفتيها، ثم قلت:
"الندم لا يعرف طريقه إلى قلوب من هم على شاكلتك.
أنتِ دفعتِ بي إلى قاع الظلام... لكنّي هذه المرة، لن أهبط وحدي".
ثم جذبتها إلى عناقٍ لا يُشبه العناق...
كلما اشتدّ، كلما عبق جسدها أيقظ النوسفيراتو داخلي.
الحب جميل... نعم.
لكنّي... لن أسمح لكواكبي أن تسقط من أجله.

وفي قمة الإثارة التي كانت تعيشها ميليسا بين ذراعي، همست في هيام:

"اقترب... وامنحني خلودك، أيها المتمرد".

قلت لها بهدوء قاتل:

"لا... لن أمنحك خلودي".

ثم اقتربت من أذنها، وهمست:

"سأمنحك الحرية الأبدية، ميليسا".

وهنا نمت أنيابي ببطء، واقتربت منها في نشوة قاتمة، وغرستها في عنقها الأبيض.

بدأت أمتص دمها برغبة مجنونة، حتى توقفت لحظة...

ما هذا الطعم؟

دمها ليس عادياً... إنه هو! نفس النكهة... نفس الخدعة... نفس نبيذ دراكولا الذي ارتشفته في أول ليلة من قيامتي.

وكلّما زادت الجرعة، كان أفيون الحب يتسلل إلى أعماقي كأنه يعود من منفاه.

وفجأة، دوى صوت الكونت دراكولا من أعماق القصر:

"كفى... كفى يا متمرد! ستموت!"

أليس هذا هو الأفيون ذاته الذي دمّرك في الماضي؟"

لكنني لم أستمع... كنت غارقاً في النشوة.

كأنّ دمها هو الخلود ذاته.

نعم، عاد الإكسير... كما عاد الجنون... كما عادت هي.

ولكن...

الموت قادم.

قادم لا محالة.

لا خلود حقيقي.

ولا خلاص في الدم.

كنتُ أوّمن بالخلود الأبدى، حتى رأيت جسدها يذوب في نهار
دمائها، بينما كنتُ أتوهم أن روحها ستحييني.

والآن...

هل منحنى دم ميليسا الخلود؟

أم أنه كان نداءً أخيراً لملاك الموت؟

كي يحصد روعي...

وترقد في سلام.

بعد أن شربت دمها بشراهة، كأثني ارتويت من نهر نبيذ في حديقة
عدن، ارتميْتُ على الأرض، ناظرًا إلى السماء.

قبل أن يأتيني ملاك الموت، رأيت شريط حياتي يعرض في ظلمة
السماء...

رأيت نفسي كما لم أرها من قبل.

تمردتُ من أجل الحياة، من أجل الحب، من أجل الإخلاص.
من راعي بقر، إلى درّاج، إلى عامل ومناضل، إلى عاشقٍ مجنون،
ثم إمبراطورٍ، ثم... مصاص دماء.

أتى ملاك الموت، فحمل روعي إلى السماوات.
وعند رفع جثمانِي، رأيت الكونت دراكولا واقفًا بجانب لينين،
وستالين، وموظف الاستقبال الإيطالي، يحملون نعشي.
خلفهم، كل العمال والجنود يهتفون:
"عشتَ حيًّا أو ميتًّا، أيها المتمرد... ارقد في سلام".

عند القبر، تقدّم ستالين، وضع العلم السوفيتي، وقال:
"أرسل تحياتي إلى يوري... ارقد في سلام، أيها المتمرد".

ثم جاء لينين، ووضع المنجل والمطرقة، وقال:
"ها أنت رحلت بشرفٍ عظيم... فلترقد في سلام".

وأتى دراكولا، عانق نعشي، ودموعه تُغرق وجنتيه:
"أنت ابني الذي لم أنجبه... لقد رحلت شهيدًا للحب. فلترقد بسلام،
يا بُني".

...وسكنت روعي.

سأقول الآن كلماتي الأخيرة، وأقولها بحبٍ مطلق:

إذا أردتم أن تعيشوا، فلا تقعوا في الحب، أيها العشاق.

لأن المتنردين أمثالي... الحب يضع تراب الذلّ فوق قبورهم.

ليس هناك فرق بين الحب والحرب... إلا حرف "راء"، أيها القارئ العزيز.

في عالمٍ رأسمالي، سَعَّر كل شيء، حتى الحب،
لم يعد الحب نعمة... بل سلعة.

الفقراء فقط يحبون بصدق،
لكنهم لا يملكون ثمن الحب في هذا العالم،
فصار الحب بالنسبة لهم حرباً... لا تُخاض إلا بالمال أو السلطة.

وكما قال ماركس:
"الرأسمالية ستجعل كل الأشياء سلعة: الدين، الفن، الأدب...
وستسلبها قداستها".

وأنا أضيف، يا سيد ماركس:
"الحب أيضاً".

أصبح للحب سعر.
وإن لم تبلغه... انقلب إلى حرب.
حبّ بلا مال... كحرب بلا سلاح.

يا أيها الفقير...
اعتنِ بنفسك، واترك الحب للأغنياء.

والوداع الآن...
سأشعل سيجارة في طريقي إلى الظلمات...
ذاهبٌ إلى السماوات العلى،
لكنني أفتقد الأجساد التي ودّعتها على الأرض،
والأرواح التي سألقاها في السماء...
يوم يُبعث البشر للحساب.
وها أنا أرجو الله أن يغفر لي ذنوب عشرين عامًا من الحب
والتمرد...
ثم أختتم بلا شيء.
بلا كلمات... بلا مفردات...
وآخر كلماتي:
فلترقد روعي في سلام... فلترقد.

إهداء

خالص الشكر لكل من ساعدني وقام بتشجيعي على بوح ما بداخلي

وعلى رأس كل هؤلاء يعود الفضل بعد الله سبحانه وتعالى

للدكتورة علياء رضوان

وشكر خاص للكاتب عبد الحليم بدران الذي الهمني علي بوح ما بداخلي .

شكرا لكم جميعا .

لمتابعة الكاتب أحمد المصري على الفيسبوك:

[/https://www.facebook.com/share/1D8uzRbqof](https://www.facebook.com/share/1D8uzRbqof)

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

<https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023>

@جميع حقوق النشر محفوظة لـ

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

٠١١١٣٣٥٧٤٧٣

